الفصل الثانى

الاستعلاء بالإيمان
لا يُنافى اتخاذ الأسباب

« ينبغى للمؤمن أن يكون مستعليا بإيمانه فوق الماديات .. وألا يلتفت قلبه إلى الأخذ بالأسباب » .. كلمات جميلة ورائعة .. ولكن من ورائها من الخلط ما يجعل المسلم يتخذ دينه روحانية أشبه برهبانية النصارى التى ابتدعوها ، والتى تتنافى مع رسالة الإسلام وشريعته .. فإن الإسلام دين اللَّه الذى خلق الإنسان وعلم كنهه .. فشرع له من الأحكام ما يناسب بشريته .. ولما كان الإنسان مركبا من روح وجسد .. جاء التشريع الإسلامى مراعيا لكل من الجانب الروحى والجانب المادى فى الإنسان ، بحيث لا يطغى جانب على الآخر فيلغيه أو يحد من دوره الذى ينبغى أن يكون .

ونضرب لذلك مثالًا : لما كان الجسد لا قوام له إلا بالغذاء من الطعام والشراب .. ولما كانت النفس لا سكن لها إلا بمعاشرة الأزواج .. أوجب اللَّه على الإنسان مالا قوام له ولا سكن له إلا به .. وأباح له ما فوق ذلك ، ثم نهاه عن السرف وكرهه له .. ولما كانت غلبة الشهوات على الإنسان تفسد إرادته ، وتضعف همته ، واللذين مبعثهما روحه ، شرع اللَّه الصيام ليحدث الاتزان بين ما يحفظ البدن وما يصلح

الروح ، ولما كان البدن لا يطيق وصال الصيام شرع اللَّه للصوم هذا التشريع الحكيم : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .. ولما أراد بعض أصحاب النبى صلى اللَّه عليه وسلم أن يواصلوا الصيام ويخرجوا عما رسمه لهم القرآن نهاهم النبى صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك . فقالوا له : إنك تواصل يا رسول اللَّه . قال : « إنى لست كهيئتكم ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى »(١) فجعلها صلى اللَّه عليه وسلم خصوصية له دونهم ، وأرجعها إلى سبب يناسب بشريته وبشرية من يخاطبهم ، فقال : « إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » ولم يقل إنى أبيت فلا أحتاج إلى طعام ولا إلى شراب .. بل أثبت أنه يطعم ويسقى .. فالسبب الذى فطره اللَّه عليه لا يزال قائما رغم خصوصيته صلى اللَّه عليه وسلم .

ومن هذا المنطلق الشامل تشعبت كل مسائل الشريعة .. ومنها مسألة التوكل والأخذ بالأسباب .. فجعل الإسلام

---

(١) رواه البخارى [١٩٦٤] ، ومسلم [٦١/١١٠٥] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

التوكل وظيفة القلب ، والأخذ بالأسباب وظيفة الجوارح ليحدث بذلك الاتزان والتكامل بين الروح والبدن .. والذى يوافق بشرية الإنسان .. وقد جاء التوجيه النبوى فى ذلك أبلغ ما يكون ، فقد جاء على منتهى الإيجاز فى قمة البيان والوضوح ، حيث قال صلى اللَّه عليه وسلم للأعرابى حين سأله : هل يعقل ناقته أم يتوكل على اللَّه ؟! قال له : « اعقلها وتوكل »[1] وكأن النبى صلى اللَّه عليه وسلم يقول له : اعقلها بيدك وتوكل بقلبك ، اعقلها بظاهرك وتوكل بباطنك .. اعقلها بما تملك من أسباب وتوكل على من يملكك ويملك الأسباب ؛ فإنه لا تنافى بين عمل الجوارح وعمل القلب ، ولا تنافى بين عمل الظاهر وعمل الباطن ، ولا تنافى بين أخذك بما تملك من أسباب وتوكلك على ربك ورب الأسباب ، بل بينهما فى ذلك جميعا التوافق والتكامل .

ولذلك كان من الخطأ البين سؤال من يسأل : هل التوكل أولى أم الأخذ بالأسباب ؟! فهذا السؤال شأنه شأن سؤال من

---

(١) رواه الترمذى [٢٥١٧] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه .

يسأل : هل أغمض عينى لأسمع بأذنى ، أم أسد أذنى لأرى بعينى ؟! فكما أن السمع لا يتنافى مع البصر بل يتكاملان ؛ لأن السمع وظيفة الأذن والبصر وظيفة العين ، ولا تعارض بين الجارحتين ، ولا تناقض بين الوظيفتين ، بل العلاقة بينهما علاقة تكامل ، فالسمع يجمع الصوت والبصر يجمع الصورة فيتكامل للإنسان الإدراك بالصوت والصورة .. فكذلك التوكل عمل القلب والأخذ بالأسباب عمل الجوارح ، ومن ثم فهما يتكاملان ولا يتنافيان .. وكما أن كمال قوة الإحساس والإدراك أن لا تغلب إحدى الحاستين على أختها بما يضعفها ، فلا يغلب السمع على البصر ، ولا يغلب البصر على السمع .. فكذلك كمال العمل وتمامه يكون بالاتزان بين التوكل والأخذ بالأسباب بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر فيضعفه أو يلغيه .

ومن هنا كان من يترك الأسباب بدعوى التوكل ، وكذلك من يعرض عن التوكل اعتمادا على الأسباب شأنهما شأن من أغمض عينيه حتى يسمع بأذنيه .. وهذا لا يخفى خطره ، فإنه ربما كان سببا فى قتل صاحبه .

أما من كان يأخذ بالأسباب فقصر فيها اعتمادا على كمال التوكل .. ومن كان يتوكل ولكن ضعف توكله اعتمادا على قوة الأسباب ، فكلاهما يحصل له التوفيق بقدر ما حصَّل منهما ، ويحرم بقدر ما قصر فى الآخر .

والخلاصة .. أن التوكل والأخذ بالأسباب كليهما واجب ولا تنافى بينهما ، فهذا عمل القلب وهذا عمل الجوارح[1] واجتماعهما معا هو امتداد لطبيعة الشريعة الإسلامية التى تتعامل مع الإنسان على أنه بشر فتراعى فيه كلا من الجانب الروحى والجانب المادى .

---

(١) ينبغى أن يعلم أن حكم الأخذ بالأسباب يتوقف على شيئين : **الأول** : مشروعية السبب ذاته . **الثانى** : حكم المقصد الذى يتوصل بالسبب إليه .. فإذا كان السبب غير مشروع أصلًا كان الأخذ به غير مشروع .. وإذا كان السبب مشروعا فى أصله كان الأخذ به متوقفا على حكم المقصد الذى يتوصل به إليه ويكون حكمه كحكمه ، فإذا كان المقصد واجبا ولا يتوصل إليه إلا بذلك السبب كان الأخذ بذلك السبب واجبا فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وإذا كان المقصد مندوبا أو مباحا أو مكروها أو حراما كان للسبب حكمه .

ومن تلك النتيجة التى خلصنا إليها نقول :

إن الاستعلاء بالإيمان بما يستلزمه من كمال التوكل لا ينافى اعتبار الأسباب وما يستلزمه من الأخذ بها ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وأوضح من أن تشرح .. ولكننا نشير إلى طرف منها :

١ - يقول الحق تبارك وتعالى حاكيا عن نبيه يوسف ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] . فهذا نبى اللّه يوسف كخبير اقتصادى يضع خطة اقتصادية لأهل مصر ليدبروا أمورهم بما يحفظ اقتصاد البلاد ، ويصلح معايش العباد خلال أربعة عشر عاما .. فأوصاهم فى السنين السبع المخصبة بأن يتركوا الحب فى سنبله ؛ لأن ذلك أدعى لحفظه من الفساد ، وأدعى لطول مدة بقائه ، وفى نفس الوقت أوصاهم ألا يأكلوا منه إلا قليلا احتياطا للسنين السبع الشداد التى بعد ذلك .

فهذه الخطة الاقتصادية ليست إلا تعمقا فى التفاعل مع الأسباب والأخذ بها ، مع أن يوسف عليه السلام نبى ، ولا أحد أعظم توكلا من الأنبياء .

٢ - قال الحق سبحانه وتعالى حاكيا عن نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ [يوسف : ٦٧] . وقد جاء فى التفسير أن يعقوب عليه السلام أوصى أولاده بذلك وهم ذاهبون إلى مصر ؛ لأنه خشى عليهم العين .. وهذا لا شك من أوضح صور الأخذ بالأسباب لتجنب المكروه .. مع تمام إيمانه بالقدر وكمال توكله على اللَّه .

٣ - وقال تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٥] . وفى هذه الآية ترتيب المسبب على سببه ، حيث جعل اللَّه هَزَّ مريم للنخلة سببًا لتساقط الرطب عليها فيفهم من هذا أنها يتعين عليها هز النخلة حتى تتساقط عليها الرطب ، فإن لم تفعل لم تسقط عليها الرطب .. فإذا كان التوكل على اللَّه واجبا - ولا شك فى ذلك - فهل يأمر اللَّه بما يخالف ما أوجبه ؟! أم أن هذا دليل قاطع على أن الأخذ بالأسباب لا يتناقض مع التوكل ولا ينافى الإيمان .. ولا يخفى أن مريم كانت فى مقام هى أضعف ما تكون فيه وأحوج ما تكون إلى عون معين ، وفى ذات الوقت هى مصطفاة فى

ذلك لأمر لم يحصل لأحد من العالمين .. ومع ذلك أمرت بأن تبذل ما تستطيع من جهد لتتنزل عليها الرطب ، وفى هذا إشارة جميلة إلى أن العبد عليه الأخذ بما استطاع من سبب ثم يتوكل على اللَّه ، فاللَّه يكفيه مهما كان ضعفه وعجزه .

٤ - وقال تعالى حاكيا عن نبيه داود : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .. ومعنى هذه الآية ، أن اللَّه سبحانه علم نبيه داود عليه السلام صنع الدروع التى تلبس فى الحروب لتكون حصنا ضد الضربات والطعنات . وهو سبحانه يمتن على عباده بذلك ويحثهم على شكره .. ولا شك أنَّ لبس هذه الدروع هو من الأخذ بالأسباب .. فكيف يمتن اللَّه على عباده بتعليمه إياهم ذلك إذا كان غير مشروع أو كان مناقضا للتوكل عليه سبحانه ؟!

٥ - قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »[1] .. هذا الحديث بمثابة القاعدة الذهبية فى الحجر

(١) رواه البخارى [٥٧٢٨] ، ومسلم [٩٢/٢٢١٨] عن أسامة بن زيد رضى اللَّه تعالى عنه .

الصحى ، الذى يحمى المجتمعات من انتشار الأوبئة .. فالنبى صلى اللَّه عليه وسلم بذلك يوصى بالحجر الصحى على الأرض التى يقع فيها الطاعون ، فلا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد .. ولا شك أن هذا من باب الأخذ بالأسباب التى يحترز بها عن الإصابة بالأوبئة .. ولم يكن ذلك أبدا منافيا للتوكل على اللَّه ولا مناقضا للإيمان[1] .

٦ - قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « الشفاء فى ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار »[2] .. هل كان ذلك القول منه صلى اللَّه عليه وسلم مخالفا لقول خليل الرحمن إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ؟! [الشعراء : ٨٠] . هل كان معنى ذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ينسب الشفاء لغير اللَّه ؟! لا شك أنه ليس هناك أحد يقول بأى من ذلك ، ولكن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يتحدث عن

(١) وقد عمل بهذه الوصية خيار أصحاب النبى صلى اللَّه عليه وسلم وهم أعظم الناس إيمانًا ، ومنهم عمر بن الخطاب .. فتأمل فى فهمه العميق ، وتوجيهه الدقيق وهو يقول : نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه » .

(٢) رواه البخارى [٥٦٨٠ ، ٥٦٨١] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه .

أسباب الشفاء التى جعلها اللَّه فى خلقه ، والتى مردها إلى اللَّه منشأ وتأثيرا .. فالذى خلقها هو اللَّه .. والذى جعل فيها هذه الخاصية من التأثير لشفاء الأمراض هو اللَّه سبحانه وتعالى .. بينما خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يخبر أن مسبب أسباب الشفاء ومالكها والمتصرف فيها هو اللَّه سبحانه وتعالى .

ولا شك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذ يخبر أصحابه بذلك فهو يندبهم إلى التداوى بها ، وهذا مفهوم بوضوح من كلامه صلى اللَّه عليه وسلم ، إذ هو لازمه وما يترتب عليه ، وهذا - ولا شك أيضا - توجيه منه صلى اللَّه عليه وسلم لأمته للأخذ بأسباب الشفاء ، وهو قطعا لا يخالف التوكل والاستعلاء بالإيمان فى شىء .

٧ - أحواله صلى اللَّه عليه وسلم وهى أعظم شاهد وأوضح دليل .. فمع أنه صلى اللَّه عليه وسلم أعظم الناس إيمانًا .. وهو إمام العالمين فى التوكل على ربه واستعلائه بإيمانه .. فهو القائل لعمه : « واللَّه يا عماه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللَّه أو

أهلك دونه »[1] . هو القائل لصاحبه وهما فى الغار وقد وقف على بابه المشركون : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . ومع ذلك انظر إليه صلى اللَّه عليه وسلم فى أخذه بالأسباب واجتهاده فى ذلك .

- فقد ادخر ما يكفيه وأهله سنة .. مع أنه أوثق الناس بربه ، وأشدهم يقينا فى رزقه .
- واحتجم صلى اللَّه عليه وسلم من مرضه .. وشاور طبيبين .
- وظاهر صلى اللَّه عليه وسلم فى أُحد بين درعين يحتمى بهما فى القتال .
- وحفر الخندق ليحمى المسلمين فى المدينة من هجوم أعدائهم الذين تحزبوا عليهم .
- ودخل مكة بعد عودته من الطائف فى جوار المطعم بن عدى ولم يقدر على دخولها بغير ذلك .
- وعقد المعاهدات مع اليهود بالمدينة ليؤمن جبهته الداخلية .
- ولم يتوجه لفتح خيبر حتى عقد صلح الحديبية .

---

(١) البداية والنهاية [٣/٦٤] .

- وقد نزل على رأى الحباب بن المنذر يوم بدر فغير موقعه الذى اختاره ونزل بناء على رأى الحباب بن المنذر على أقرب ماء من المشركين .. ولم يقل للحباب إن المسألة مسألة إيمان وتوكل ، وينبغى أن نستعلى على هذه الحسابات المادية .
- وانظر إليه صلى اللَّه عليه وسلم وهو مهاجر من مكة إلى المدينة .. ماذا فعل ؟ وماذا اتخذ من أسباب وتدابير ليتخفى عن أعين المشركين :
- فى ليلة الهجرة أمر عليا أن يضطجع على فراشه صلى اللَّه عليه وسلم ويتغطى ببرده الحضرمى الأخضر .
- ولما ذهب إلى أبى بكر ليصحبه غادرا منزل أبى بكر من باب خلفى ليخرجا من مكة على عجل وقبل طلوع الفجر .
- وسلك طريقا جنوب مكة يتجه إلى اليمن ، أى : فى عكس اتجاه المدينة تمويها على المشركين وسار فى ذلك الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ جبل ثور .
- ثم دخلا غار ثور وكمنا فيه ثلاث ليال .. وبينما هم فى الغار كان عبد اللَّه بن أبى بكر يأتيهما بخبر قريش فيبيت

عندهما ثم يرجع فى السحر حتى يصبح وكأنه بائت مع قريش بمكة .

○ وكان عامربن فهيرة يروح عليهما بغنم يرعاها لأبى بكر فيسقيهما من لبنها ، وكان عامر يمر بغنمة على أثر عبد اللَّه بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة حتى يزيل آثار أقدامه .

كل هذه التدابير والاحتياطات وغيرها اتخذها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى يتخفى عن أنظار قريش ويتمكن من الهجرة إلى المدينة سالماً .

وبينا هو فى الغار ، وقد وقف المشركون على بابه وانقطعت الأسباب .. وقد خشى أبو بكر الصديق أن يراهما المشركون ، فقال للنبى صلى اللَّه عليه وسلم مشفقًا على رسول اللَّه : « يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم تحت قدميه أبصرنا »[1] .. وهنا يبرز ذلك التوكل الذى لا مثيل له .. وذلك الاستعلاء الرائع على الأسباب ثقة برب الأرباب سبحانه ، فيقول النبى صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

---

(١) رواه مسلم [١/٢٣٨١] .

فانظر كيف كان أخذه صلى اللَّه عليه وسلم بالأسباب .. وفى ذات الوقت انظر إلى توكله صلى اللَّه عليه وسلم على اللَّه واستعلائه على الأسباب لتدرك بجلاء ووضوح أن الأخذ بالأسباب والتوكل على اللَّه لا يتنافيان بل يتكاملان .. فصلى اللَّه على نبينا وسلم تسليما كثيرًا .

من كل ما سبق نعود ، فنقول : إن الأخذ بالأسباب هو منهج الإسلام لا ينافى التوكل ولا يصطدم مع الاستعلاء بالإيمان فى شىء ، وأما كون المؤمن ينبغى أن يستعلى بإيمانه على الأسباب والماديات ، فهذا صحيح من باب آخر غير باب تعطيل الأسباب .. وهذا الباب الذى يصح منه ذلك الكلام ، هو أنه ينبغى على المؤمن بعد أخذه بالأسباب ألا يلتفت إليها ولا يتوكل عليها ، وإنما يتوكل على اللَّه وحده .. وكما قيل : يأخذ بالأسباب ثم يكفر بها أى : يأخذ بها بجوارحه ولا يجعل لها مكانا فى قلبه .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الالتفات إلى الأسباب بالقلب والاغترار بها هو مما يضر بالإيمان ويستجلب الخذلان .. كما

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة : ٢٥] .. وذلك لما اغتر من اغتر من المسلمين حديثى العهد بالإسلام ، بقوة المسلمين ، فقال قائلهم : « لن نهزم اليوم من قلة »(١) .. وأمَّا الاستدلالُ بوجوب التوكل على إبطال الأسباب وإغفالها فمردود كما بيناه .. واللَّه الموفق .

وبعد ، أحبتى .. قد يقول البعض : إن اللَّه نصر نبيه موسى على فرعون بتوكله مع انعدام الأسباب ، بل مع وجود أسباب الهلكة للمؤمنين ، ويستدلون بذلك على أن الإيمان يكفى المؤمن فلا يحتاج إلى أسباب .. نقول : لا يصلح الاستدلال بذلك على ترك الأخذ بالأسباب ؛ لأن هذه كانت معجزة لموسى عليه السلام ، والمعجزات من خواص الأنبياء ولا ينبنى عليها تشريع ؛ وإنما هى مما يبعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بأن اللَّه حافظ دينه وناصره ؛ ولأنه لولا هذه المعجزة لم يعبد

---

(١) ذكره السيوطى فى « الدر المنثور » وعزاه للبيهقى فى الدلائل عن الربيع رضى اللَّه تعالى عنه « أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ قال الربيع : وكانوا اثنى عشر الفا ، منهم ألفان من أهل مكة .

اللَّه فى الأرض بعدها ، فإنه لم يكن على الأرض مؤمن إلا موسى وقومه .. ثم إن هذا حدث لموسى بعد أن فر بقومه من فرعون ناحية البحر ، وهذا الفرار ليس إلا أخذا بالأسباب وينبغى أن يعلم أنه عند انعدام الأسباب فإن اللَّه عز وجل يُنزل على عباده المتوكلين عليه المعونة والنصرة ، ولكن هذه المعونة والنصرة هى بمقياس ربانى لا بمقياس البشر المعهود .. فقد تكون بنصر مادى حقيقى مطابق لمفهوم البشر بما يستتبعه ذلك من إهلاك أعداء الإسلام ، وقد تكون بمجرد إنجاء اللَّه لعبده كما أنجى اللَّه إبراهيم من النار ، وقد تكون بأن يصطفى اللَّه عبده شهيدا كما حدث مع حبيب النجار مع أنه كان من أهل كرامة اللَّه .. ولذلك فإن هذا أيضا ليس مما تبنى عليه أحكام ؛ لأنه غيبى عنا .

○ وقد يقول البعض : إن نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام أودع زوجته هاجر وطفله الرضيع إسماعيل بواد غير ذى زرع حيث لا طعام ولا شراب ولا أنيس ولا أسباب من أسباب الحياة وذلك توكلًا منه على اللَّه .

والجواب .. أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما كان تنفيذا لأمر محدد أمره اللَّه به ، وليس لإبراهيم عليه السلام فى ذلك اختيار ،

ومع ذلك فهذا مما يوجب له ولهاجر الطمأنينة ، وهذا صريح من القصة حيث قالت له هاجر : آللَّه أمرك بهذا ؟! قال : نعم . قالت : إذًا لن يضيعنا اللَّه ؛ لأنها تعلم أن اللَّه هو مسبب الأسباب ، فطالما أنه هو الذى أمر بهذا فسيسبب لهم من الأسباب ما يحفظهم وييسر لهم حياتهم .

ولنا هنا سؤال : ماذا لو لم يأمر اللَّه نبيه إبراهيم عليه السلام بذلك ، هل كان سيفعله ؟! وهل كانت ستستجيب له زوجته هاجر دون مراجعة ومناقشة وحساب للأسباب ؟! ولا شك أن هذا التصرف من إبراهيم عليه السلام إنما جرى مجرى تصرفه فى ذبح ولده ، فهو مبنى على الانقياد والاستسلام لا على ترك الأخذ بالأسباب .

○ يتردد على ألسنة البعض من العاملين للإسلام قولهم : إن الأفغان انتصروا على الاتحاد السوفيتى بعدة بنادق .. ويتحدث البعض عن القتال الذى دار بين الأفغان والروس على أنه كان كله مبنيا على العجائب والغرائب التى أكرم اللَّه بها المجاهدين ونقول :

أولاً : إن هذا الكلام إنما انبنى على خيالات وأمنيات لا على قراءة صحيحة للأحداث ، واستقبال صحيح للمعلومات .. ولذلك فإن هذا الكلام ليس له أساس من الصحة .. فالأفغان لم يقاتلوا بعدة بنادق كما يقول هؤلاء ؛ وإنما كانوا يقاتلون بأسلحة ثقيلة ومتطورة .. وكانت تأتيهم أنواع الإمدادات المختلفة من باكستان والسعودية والإمارات .. وكان من وراء ذلك كله الإمدادات الأمريكية والغربية .. ويكفى أن نعلم فى ذلك ، أن أمريكا أمدت المجاهدين الأفغان بصواريخ « ستنجر » فى الوقت الذى لم تكن قد وصلت فيه هذه الصواريخ لإسرائيل طفلة أمريكا المدللة ، وكان يصرف لكل لاجئ أفغانى معونة مالية .. وبالطبع كانت أمريكا تفعل ذلك لتحقيق مصالحها الشخصية حيث كانت تخشى من زيادة التوسع السوفيتى ، وكانت أشد خشية من وصوله للمياه الدافئة فى الخليج العربى . والذى يعنينا من هذا الكلام ، أن هذا هو الواقع الذى كان .. وتلك كانت طبيعة العوامل التى تكمن خلف المجاهدين الأفغان كأسباب .. وبالطبع كانت هذه الأسباب إلى

جانب توكلهم وإيمانهم ، ولكنه أبدا لم يكن الأمر كما قيل بمجرد عدة بنادق دحروا الاتحاد السوفيتى !!!

ثانيًا : هذا الكلام لا يتوافق مع السُّنن الكونية التى سنَّها اللَّه فى خلقه ولم يجعل لها تبديلا ولا تحويلا .. والسُّنن الكونية لا يستثنى منها شىء إلا ما أراده اللَّه معجزة لنبى أو كرامة لولى .. وكلاهما لا تنبنى عليه أحكام .

ثالثًا : إنه لا ينبغى أن يغتر العاملون للإسلام بما يثيره مثل هذا الكلام من حماسة للشباب لحب الدين والعمل على نصرته ، إذ أن هذا الكلام فضلا عن كونه لا يصح تاريخيا فإنه يترتب عليه مفاهيم خاطئة شرعا وواقعا .. وهذا ولا شك له أكبر الخطر على الأمة الإسلامية .. ولعل من الشواهد على ذلك ظهور نظريات فى الجهاد تقوم على عدم الاعتبار بالأسباب طالما أن الإيمان موجود .. فترى هناك من يريد أن يحارب العالم بأسره فى آن واحد ، بينما هو لا يملك من أسباب القوة المعتبرة شيئا .. بل لا يجد مأوى يأويه ، ولا دولة تعينه .. تراه مع ذلك يريد أن يحارب أمريكا فى ١١ سبتمبر ، والروس فى

الشيشان ، والهند فى كشمير ، ويقوم بعمليات على أراضى الإسلام فى السعودية ، واليمن ، والمغرب ، وأندونيسيا وغيرها .

ونتائج ذلك معلومة .. إهدار كثير من دماء أبناء هذه الأمة دون تحقيق أدنى مصلحة للإسلام والمسلمين ، فضلا عما يترتب على ذلك من مفاسد متناهية فى الخطورة على الإسلام والمسلمين .. والواقع خير شاهد ودليل .

ولذلك ينبغى أن يكون الاهتمام بتأسيس أبناء الحركة الإسلامية على الفهم السليم المبنى على أصول ثابتة ، ومعلومات صحيحة وحسابات دقيقة .

● وفى الختام .. نقول لكل مسلم يحب دينه ويعتز بإيمانه ويستمسك بعقيدته :

○ إن أمة أعرضت عن الأسباب فلم تأخذ بها ، إنما هى أمة من العاطلين والكسالى ، لا تقدم خيرا للبشرية ولا تقوم على أكتافها حضارة .. ولا يليق هذا بخير أمة أخرجت للناس .

○ إن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل ، ولا يناقض الاستعلاء بالإيمان فى شىء .

○ إن الأخذ بالأسباب هو فطرة اللَّه التى فطر الناس عليها ، وهو شرعه الذى ارتضاه لنا وهو المسلك الواجب فى التعامل مع السُّنن الكونية التى سنها اللَّه فى كونه .

○ فمن أراد الثمر فعليه أن يأخذ بأسبابه .

○ ومن حرث فى البحر أو زرع فى الأرض البور ، فلم يخرج له ثمر فلا يلومن إلا نفسه .

○ ومن حارب بغير سلاح ، واتقى بغير درع .. فلا ينتظر إلا الهزيمة ، ولا يتوقع إلا القتل .

○ ومن جاهد ولم يأخذ بأسباب القتال فهزم وشرد فلا يلومن ربه ، ولا يلومن دينه ، ولا يلومن إلا نفسه .

● أخى المسلم :

خذ الدين كله .. ولا تأخذ بعضه وتترك بعضه .. خذ منه التوكل والاستعلاء بالإيمان .. وخذ منه السعى والأخذ بالأسباب .. واعلم أن الدين لا تتناقض شعائره ولا شرائعه .. فمن فهم تناقضا فى شىء من ذلك ، أو عجز عن إدراك التكامل فى ذلك .. فليس ذلك لخلل فى منهج الإسلام ؛ وإنما الخلل فى فهمه .. فإن الإسلام دين اللَّه العليم الحكيم .. واعلم

أن أكمل الهدى وخيره هدى محمد صلى اللّه عليه وسلم الذى أخذ بالأسباب فى الهجرة حتى لم يدع سببا يمكنه الأخذ به ، ثم قال لصاحبه فى الغار والمشركون على بابه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

اللّهم ارزقنا عقلاً رشيدا .. وفهما سديدا .. ودينا قيما .. واهدنا صراطا مستقيما .. وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين ...

○ ○ ○